أن الله تعالى ما خلق السماوات والأرض لهما ولا خلقهما باطلا

..... السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين
وصلى الله وسلم على أشرف المرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. قد أخبر الله تعالى بأنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام ولو
شاء لخلقها في لحظة وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، وجعل في خلقها عبرة وعظة كما قال تعالى: { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ آيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ } هذه الآية وما بعدها في آخر سورة آل عمران آيات عظيمة ذكر الله تعالى في أولها خلقه لهذه
السماوات والأرض، وذكر أن فيها عبرة للمعتبرين وآيات للمفكرين الذين يذكرون الله في كل حالاتهم ورد أن النبي -صلى الله عليه وسلم- لما
أنزلت عليه هذه الآيات العشر في ليلة من الليالي بكى طوال ليله ثم قال: { ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها } . وسئل بعض السلف الرواة ما
المخرج من هذا الويل فقال: أن يقرأها وهو يعقلها يعني يقرأها وهو حاضر القلب عند قراءته لها؛ ذكر الله تعالى فيها أن خلق
السماوات والأرض فيه آيات ولكنها آيات ودلالات وعجائب في هذه المخلوقات، ولكن إنما يعتبر بها ويتذكر أولو الأبواب يعني أهل العقول الذكية
الذين ينتبهون لما أمروا به ويفكرون في هذه الآيات؛ ولذلك مدحهم وذكر شيئاً من صفاتهم بقوله: { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ
وَالنَّهَارِ آيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ } من هم { الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ } أي دائماً ذكروهم لربهم لا ينقطعون عن ذكره ولا ينشغلون
بغيره بل هم دائماً يذكرونه ويفكرون في خلقه، ولهذا قال: { وَتَتَفَكَّرُونَ } أي تفكر تعقل { وَتَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ } ويقولون {
رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ قِنَّا عَذَابَ النَّارِ } . إذا تفكروا في هذه المخلوقات العلوية والسفلية عرفوا أن الله ما خلقها لهما ولا خلقها باطلا
فإنه سبحانه يتنزه عن أن يخلق شيئاً عبثاً، فما خلق الإنسان عبثاً ولا خلق هذه المخلوقات عبثاً كما قال الله تعالى: { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ
وَمَا بَيْنَهُمَا لِأَعْيُنٍ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ } يعني أن الإنسان إذا تفكر في خلقها اعتبر بذلك وعرف فيها الآيات عرف أنها آيات عظيمة ودلالات كبيرة
تدل على عظمة من خلقها. إذا نظرت في هذه الأرض التي هي واحدة من سبع أرضين وهي صغيرة بالنسبة إلى بقية خلق الله تعالى، إلى بقية ما
خلقها فإنك بذلك تعبير وتقول: سبحان من خلقها ومن أوجدها فتفسير فيها إياماً وتجد فيها اختلافات فتجد أرضاً مستوية ليس فيها ارتفاع ولا منخفض،
وتجد بعدها أرضاً رملية فيها كذب وفيها مرتفعات، ثم تجد بعدها أرضاً جبلية فيها صخور وفيها جبال إما مستوية وإما شاهقة مرتفعة، وتجد أحياناً أرضاً
فيها شعاب وفيها أودية وفيها أشجار، وتجد الأشجار والنباتات تختلف من بقعة إلى بقعة وهكذا أيضاً قول الله تعالى: { وَتَبَّتْ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ } أي
ما خلقه فيها من هذه الدواب الزاحفة والطائرة والسائرة الكبيرة والصغيرة لا شك أنها عبرة وموعظة. ذكر الله تعالى أيضاً الليل والنهار يعني هذا
الليل والنهار آيات من آيات الله تعالى لو شاء الله كما في بعض البلاد لجعل الليل كله دائماً ولو شاء لجعل النهار دائماً ولهذا قال تعالى: { قُلْ
أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ } يأتيتكم بنور تمشون فيه الله تعالى هو الذي يأتي بذلك، ثم
قال: { قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا } يعني دائماً مستمراً { مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ } فهو سبحانه جعل هذا
الزمان منقسماً إلى ليل ونهار وجعل الليل يستقرون فيه ويهدعون وتهدأ حركاتهم ويرجعون أنفسهم بعد التعب وبعد الكد وبعد التقلب في أمورهم
وفي مصالحهم، وجعل الليل لهم سكوناً كما في قول الله تعالى: { وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ } لتسكنوا في
الليل ولتبتغوا من فضله في النهار؛ فالنهار هو محل العمل ومحل التقلب في الحرف والأعمال وما أشبهها والليل جعله سكوناً. كذلك أيضاً جعل لكل
منهما آية قال الله تعالى: { وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحْوَةٌ آيَةُ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً } آية النهار في هذه الشمس التي إذا طلعت
أضاءت الدنيا أضاءت ما على وجه الأرض وأشرفت لهم واستضاءوا بنورها، وصاروا في نهار ظاهر يتقبلون في حاجاتهم ويذهبون فيما يريدونه، فإذا
غابت عنهم أظلم عليهم الزمان؛ وآية النهار هي الشمس وآية الليل هي القمر، إذا جاء الليل فإنهم ينتفعون بالقمر حيث يضيء لهم بعض الإضاءة
بعض الإضاءة فيستدلون به ويسبرون على ضوءه إذا احتاجوا إلى السرى في الليل هذه الشمس وهذا القمر آيات من آيات الله قال الله تعالى: {
وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ } يعني أنهما آيات مخلوقتان من آيات الله
الشمس والقمر جعلهم الله تعالى دائبين قال تعالى: { وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ } أي سيران دائبين لا يتوقفان. أحياناً يجتمعان في أول
الشهر فيكون القمر مقارباً للشمس وبعد ذلك يتأخر عنها كل يوم منزلة من المنازل إلى أن يكون في الشرق والشمس في الغرب، وذلك عندما
ينتصف الليل جعل الله تعالى عندما ينتصف الشهر جعل الله ذلك لمعرفة الأوقات يعرفون اليوم بهذه الشمس، ويعرفون الأسبوع بالشمس
ويعرفون الشهر بالقمر، وكذلك يعرفون السنة بهذا القمر يعرفون السنة بالأشهر التي يعرفونها بهذا القمر وذلك قوله تعالى: { وَتَلَعَّمُوا عَدَدَ
السَّنِينَ وَالْحِجَابِ } أخبر تعالى بأنه جعل هذه الآيات حتى يعرفوا ذلك ثم معلوم أن الشمس تطلع كل يوم وتغرب كل يوم أي مساء كل يوم تغرب
على قوم وتطلع على آخرين فإذا طلعت علينا فقد غربت عن غيرنا وذلك لأن الأرض متسعة فتغرب عنا وتطلع على آخرين على غيرنا وهكذا دأباً.
وكذلك أيضاً القمر قد يطلع علينا في وقت من الأوقات ويكون غائباً على غيرنا قد يطلع عند غيرنا يكون طالع علينا فجعلها الله تعالى سائرين
دائبين { لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ } كل منهما يسير بتسيير الله تعالى جعل الشمس لها فلها تسير فيه حتى تقطع
هذا الفلك في يوم وليلة أي تقطع هذه المسافة الطويلة في يوم وليلة وجعل القمر أيضاً في فلك ولذلك قال تعالى: { لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ
تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ } أي الليل والنهار والشمس والقمر كل منها مركبة في فلك تسبح يعني سائرة كما ركبت
وكما سخرت، هكذا أخبر بأنه سخر الشمس والقمر كل أي كل منهما يجري؛ يجري يعني يسير في جهته التي يسير فيها قال تعالى: { وَالشَّمْسُ
تَجْرِي لِإِسْتِقْرَارٍ لَهَا } أي تسير سيرها الحثيث الذي سيرها الله وركبها والقمر يجري أي يسير ولهذا قال: { وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ
مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْعَفَّافُ } فذكر جريانهما، وجريانهما على ما قدر الله وعلى ما يسره فكل منهما يسير السير المعتاد إلا أن سير الشمس أسرع
من سير القمر. ولهذا إذا كان في أول الشهر يكونان مجتمعين في المغرب في المغرب نراهما غائبين جميعاً، ثم في اليوم الثاني نرى القمر تأخر
عنها قليلاً، ثم في اليوم الثاني تأخر عنها، ثم في اليوم الثالث تأخر إلى أن يصير القمر في المشرق والشمس في المغرب في نصف الشهر، وهكذا
لا يزال يتأخر إلى أن تدركه مرة ثانية يعني تقرب منه فعند ذلك يكون ذلك علامة على تمام الشهر، وإذا كان كذلك فإن الله تعالى قد ذكر أن
للشمس مشرقاً أو مشارق وكذلك للقمر قال الله تعالى: { فَلَا أَفْسِيْمُ رَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ } كيف يكون لها مشارق ومغارب مشارق الشمس
ومشارق القمر ومغارب كل منهما؛ أي الذي يشرق ويغرب وذلك لأن الشمس تارة تطلع من جنوب الأرض فيما نرى وتارة تكون من وسطها وتارة
تكون من الشمال. وكذلك أيضاً القمر تارة يطلع من جهة الجنوب وتارة من وسط الأرض وتارة من جهة الشمال وهكذا؛ الغروب نشاهده مثلاً أنه
يغرب من جهة الشمال ثم في أشهر يتأخر قليلاً إلى أن يغرب في وسط المغرب ثم يسير قليلاً قليلاً إلى أن يغرب في جهة الجنوب فلأجل ذلك جمع
الله المشارق والمغارب { فَلَا أَفْسِيْمُ رَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ } وثناهما أيضاً في قوله تعالى: { رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ } المراد مشرق
الشمس في الشتاء ومشرقها في الصيف، وكذلك مغرب الشمس في الشتاء، مغربها في الشتاء في جنوب الجهة الغربية وفي الشتاء في شمالها
فتناهما في هذه الآية { رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ } وأفردهما أيضاً في قوله تعالى: { رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ قَاتِلُ ذُرِّيَّةٍ } أي
المراد بالمشرق المشرق كله الذي يشرق منه الشمس والقمر، والمغرب المغرب كله الذي يغرب منه القمر. فقول الله تعالى: { وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ
وَالْمَغْرِبُ } أي له المشرق والمغرب أي كله من كله، لله المشرق الذي هو جهة المشرق ولله المغرب الذي هو جهة المغرب ولهذا قال موسى لفرعون
{ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ } أي ربهما ومالكهما ومالك ما بينهما، والذي بينهما هم الخلق كلهم فإنهم بين المشرق
والمغرب يعني على وجه الأرض التي فيها شروق وفيها غروب.